منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

wwwalmadasupplementscom

العدد (5113) السنة التاسعة عشرة - الاربعاء (26) كانون الثاني 2022

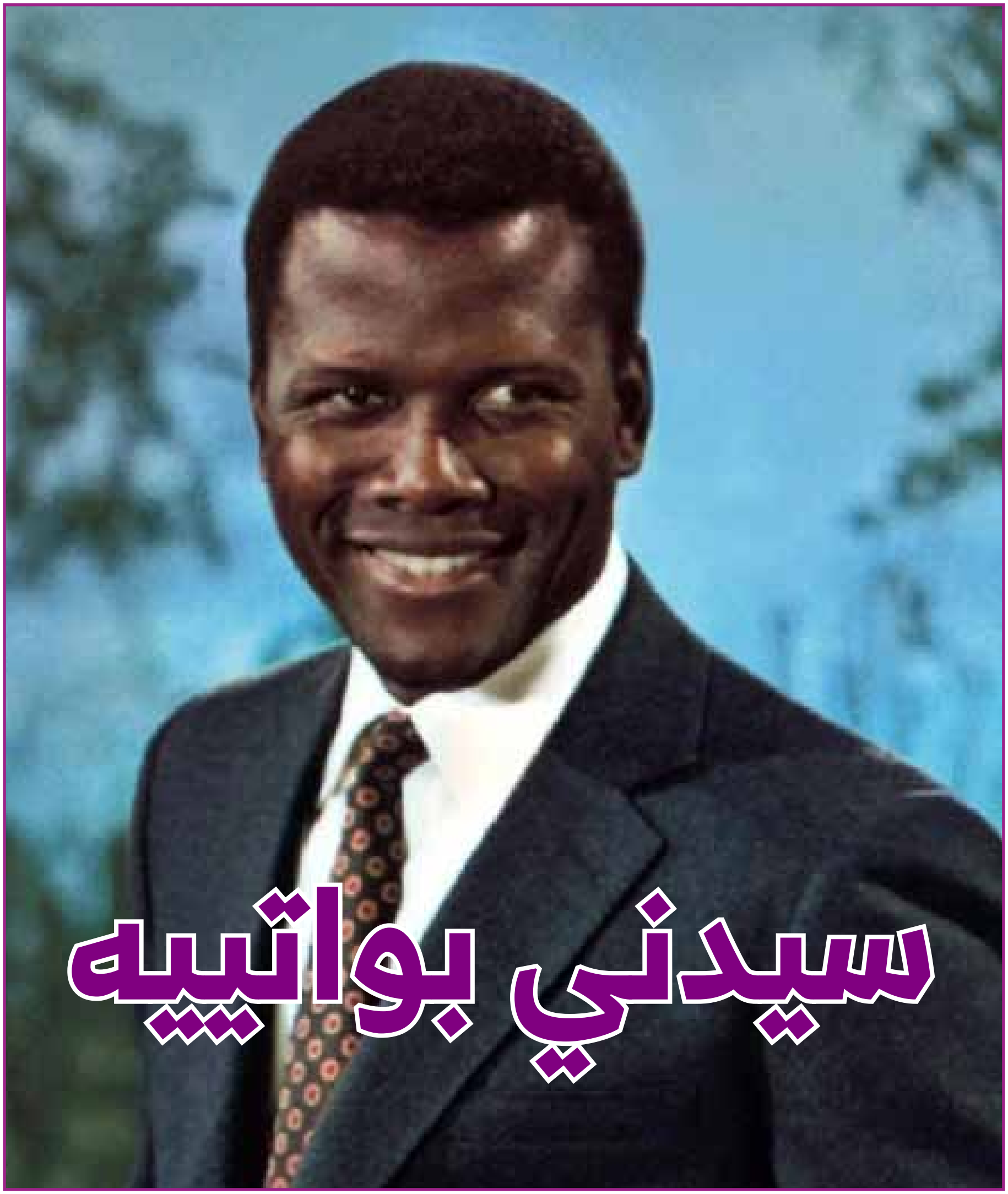

سيدني بواتييه

تردد المخرج نورمان جويسون حيال تصوير المشهد الذي يقوم فيه سيدني بواتييه بصفع الممثل لاري غيتس ولسبب مهم: بواتييه (الذي رحل عنا قبل ايام) هو ممثل أسود يؤدي شخصية تحري أسود، ولاري غيتس ممثل أبيض يؤدي شخصية صاحب مزرعة أبيض و... في الستينات.
لكن هذا المشهد بحد ذاته بقي المشهد الأكثر حضوراً بين مشاهد فيلم «في حرارة الليل» لأنها المرّة الأولى التي يُشاهد فيها جمهور السينما (من كل الألوان) مشهد صفع رجل أفرو - أميركي لرجل أبيض. لذلك تردد المخرج الراحل جويسون كان في محلّه، خصوصاً أن أهالي بلدة دايرسبيرغ، في ولاية تنيمسي، الجنوبية، أبدوا انزعاجهم من فيلم يتولّى تقديم وتأييد وتفضيل بطل أسود سيكشف عن أحداث عنصرية تواجهه رغم أنه من رجال البوليس حسب موضوع هذا الفيلم الذي تم تصويره سنة ١٩٦٦.

سيدني بواتييه رحل سعيداً بما أنجزه وتركه من إرث

محمد رضا

«في حرارة الليل» هو أحد أفلام الممثل سيدني بواتييه البارزة الذي رحل عن 94 سنة في اليوم التالي لرحيل المخرج بيتر بوغدانوفيتش عن 82 سنة. لم يعملا معاً، لكن لكل تأثيره الكبير على مراحل فن الفيلم الأميركي ومضامينه.

وُلد بواتييه في العشرين من فبراير (شباط) سنة 1927 في مدينة ميامي الأميركية خلال زيارة والديه إليها قادمين من إحدى جزر باهاما. كانت ولادته مبكرة (شهران قبل الوضع) ولم يتوقع له أن يعيش لكنه فعل. عاد طفلاً مع والديه لكنه ترك الباهاما عائداً إلى ميامي في سن الخامسة عشر، حيث عاش لسنة مع شقيق له ثم توجه إلى نيويورك باحثاً عن عمل. في منتصف الأربعينات التحق بواتييه بفرقة تمثيل مسرحي قوامها من الأفرو - أميركيين. واجه معضلة أن لكنته ما زالت غير أميركية فاشتغل على نفسه من ناحيتين: تطوير قدراته الدرامية وتحسين لهجته لكي تلتحم مع السائد.

في سنة 1950 وبعد تجارب مسرحية لافتة لكن محدودة، وجد بواتييه فرصته الذهبية عندما اختير ليؤدي دور الطبيب في فيلم No Way Out للمخرج جوزيف مانكيوفيتز. ذلك الفيلم الأول لبواتييه تداول موضوع العنصرية الذي سيصاحب عددا كبيرا من أعماله لعقدين تاليين. هنا نراه في دور طبيب يتمتع بثقة مسؤوله (ستيفن مكنيللي) لكن أحد مرضاه (هاري بيلافر) يموت. شقيق الميّت، المريض بدوره (رتشارد ودمارك) يلومه من منطلق عنصري ويرفض أن يعالجه طبيب أسود.

في فيلمه التالي «ابك يا وطني الحبيب» (Cry، the Beloved Country) للمجري سلطان كوردا (تم تصويره في جنوب أفريقيا) لعب شخصية أفريقي يعايش الوضع الصعب، ثم شاهدناه في Go Man Go لجيمس وونغ هاو (1954) الذي دار حول نشأة حي هارلم في نيويورك. بعده في دور صغير «غابة اللوح الأسود» (Blackboard Jungle) لرتشارد بركس (1955) حول أستاذ مدرسة (غلن فورد) يواجه عداوة بعض تلامذته بسبب لون بشرته. بواتييه لعب هنا دوراً مساندا، لكنه الوحيد الذي قفز لاحقاً إلى أدوار البطولة باستثناء غلن فورد الذي كان أسس نجوميّته قبل ذلك بسنوات عدة.

هذه الأفلام تعرّضت ولم تطرح الوضع العنصري جيداً. ليس على النحو الوارد لاحقاً في «حافة المدينة» (Edge of the City لمارتن رت، 1955) حيث يواجه العامل تومي (بواتييه) عنصرية أحد مسؤولي المصنع (جاك ووردن) ولا يجد من يدافع عنه سوى اليهودي أكسل نوردمان (جون كازافيتيز). طبعاً المحور لم يعد هنا كناية عن عنصرية ضد شخص أسود، بل دفاع اليهودي عنه. على ذلك، هناك محاولة نوردمان التملص من دفاعه خشية خسارته عمله أو حياته، هذا قبل أن يحاول إصلاح وضعه حيال القضية الماثلة.

عاد رتشارد بروكس إلى بواتييه ليضعه في مواجهة روك هدسون في دراما تدور أحداثها في كينيا في فيلم بعنوان Something of Value («شيء ذو قيمة»، 1957). مثل «ابك، يا وطني الحبيب» ينقل الفيلم شحنة الصراع على محيط واسع وغير فردي يقع في أفريقيا. هذا على عكس «المتحديان» (The Defiant Ones) لستانلي كرامر (1958) الذي نجد فيه السجين بواتييه مقيّداً إلى سجين آخر (توني كيرتس) بعدما هربا من السجن وأخذا يبحثان عن مأوى مشترك.

بعد هذا الفيلم توالت أعمال أخرى لبواتييه سعت لتوسيع رقعة قبوله بين المشاهدين الذين أخذوا يقدّرون موهبته في أداء الأدوار الدرامية. هذه الأفلام دارت بعيدا عن الموضوع العنصري وإن حاذى بعضها الوضع العام في الجنوب الأميركي مثل «باريس بلوز» لمارتن رت (1961) و«براعم في الحقل» لرالف نلسون (1968). بعضها الآخر وضع بواتييه في مدارات بعيدة جداً عن الواقع ومنها «السفن الطويلة» (The Long Ships) لجاك كارديف حيث شوهد في دور أفريقي يحارب لجانب الفايكينغز. هو أيضاً في فيلم تاريخي آخر حققه جون ستيفنس بعنوان «أعظم قصّة رُويت» (Ther Greatest Story Ever Told) سنة 1965.

تعززت نجومية بواتييه في النصف الثاني من الستينات بأفلام مثل التشويقي «الخيط النحيف» لسيدني بولاك (1965) والوسترن «مبارزة في ديابلو» لرالف نلسون (1966) ثم في الفيلم «للأستاذ مع الحب» (To Sir، With Love) لجيمس كلافل.

كل هذا سبق «في حرارة الليل» المأخوذ عن رواية بوليسية لجون بول وتدور حول التحري الأسود تيبس (سيدني بواتييه) القادم من المدينة، التي منحته القيمة الإنسانية والمكانة الاجتماعية، إلى بلدة صغيرة في الجنوب الأميركي لزيارة والدته. قبل مغادرته البلدة يتم إيقافه بعد اكتشاف جريمة قتل. رئيس الشرطة غيلسبي (رود ستايغر) لم يكن يعلم أن الموقوف هو تحري في سلك البوليس مثله وعليه يفرج عنه. لا يسجل الفيلم أي ود بينهما، لكن شرطة المدينة تقترح على رئيس البوليس الاستعانة بمستر تيبس لكشف الجريمة فيذعن هذا على بعض الامتعاض.

يبدأ مشهد الصفعة بسيارة الشرطة قادمة من بعيد. كاميرا عليا تكشف عن مزارع قطن يقطف محاصيلها عمال سود. تلتقط الكاميرا السائق، رئيس البوليس المحلي غيلسبي يعلك ويقود السيارة وإلى جانبه التحري فَرجل تيبس (بواتييه) ينظر من نافذته إلى المزارعين السود. في الخلفية يصدح الساكسفون المميّز لأغنية تحمل عنوان الفيلم لنسمع بعد قليل جزءا منها بصوت راي تشارلز وهي الأغنية التي اشتهرت بسبب الفيلم.

عند الوصول يواجه بواتييه صاحب المزرعة إنديكوت (غايتس) بقضية مقتل رجل أبيض فيعتبر إنديكوت أن التحري تجاوز حدوده خصوصاً وأنه أسود. يصفع تيبس على وجهه، فيبادره تيبس بصفعة أقوى. يضع إنديكوت يده على وجهه مبهوتا. هذا لم يحدث له في حياته. لم يجرؤ رجل أسود البشرة على صفعه أو حتى الحديث إليه بنبرة مساوية من قبل. يسأل الشريف غيلسبي ماذا سيفعل حيال ذلك. لكن غيليبسي لا يدري. وظيفة تيبس أعلى من وظيفته. إنديكوت يقول: «كان هناك وقت كنت أستطيع فيه إعدامك لقاء ما فعلته».

لا يتخلى الفيلم بعد ذلك عن رصده لمعالم عنصرية أخرى. الحكاية البوليسية هي الرداء والمضمون يخرج من تحته. ليس أنه فيلم رسالة فقط، بل هو جيد الصنعة أيضاً وخرج حينها بخمسة أوسكارات من سبعة ترشيحات. إذ نال أوسكار أفضل ممثل (رود ستايغر) وأوسكار أفضل فيلم وأوسكار أفضل مونتاج (هال أشبي) وأوسكار أفضل سيناريو مقتبس (سترلينغ سليفانت) وأوسكار أفضل صوت. خسر الفيلم أوسكارين واحد كأفضل مؤثرات والآخر كأفضل إخراج (نالها مايك نيكولز عن «المتخرّج» The Graduate).

بذلك غاب اسم بواتييه كاملاً عن الترشيحات. وهو كان من المرشّحين عن دوره في فيلم «المتحديان» سنة 1959 ثم نال الأوسكار سنة 1964 عن دورٍ في «براعم في الحقل»، لكن فوزه بذلك الأوسكار ليس تبريراً لعدم ترشيحه مجدداً.

حين نال أوسكاره عن «براعم في الحقل» كان أول ممثل أفرو - أميركي ينال الأوسكار في تاريخ الجائزة وهو فعل ذلك رغم وجود ممثلين أقوياء (ثلاثة منهم بريطانيون) في المنافسة هم ركس هاريسون عن «كليوباترا» وألبرت فيني عن «توم جونز» ورتشارد هاريس عن «هذه الحياة الرياضية». الخامس كان بول نيومان عن «هُد».

نجاح «في حرارة الليل» كان دامغاً وشخصية التحري تيبس عادت وعاد معها بواتييه في فيلمين لاحقين هما «يناديونني مستر تيبس» They Call Me Mister Tibbs! [غوردون دوغلاس، 1970] و«المنظّمة» The Organization [دون مدفورد، 1971]. لكن «في حراة الليل» هو الوحيد بين هذه الأفلام الذي تعامل مع العنصرية على نحو بيّن ومُدين.

في سنة 1967 الذي تم فيها إطلاق «في حرارة الليل» كانت لبواتييه وقفة أخرى في موضوع عنصري المفاد.

هذا حدث عندما قام بواتييه ببطولة «احزر من القادم للعشاء» (Guess Who's Coming to Dinner) الذي أدّى فيه دور مثقف أسود تدعوه صديقته البيضاء جووي (كاثرين هاوتون) لزيارة والديها تمهيداً لإعلان خطوبتهما. والداها ثريان من زمن كان يؤمن بالتفرقة بين البيض والسود (هما كاثرين هيبورن وسبنسر ترايسي) وحضوره يفاجئهما. لا يعترضان لكنهما يتساءلان وما يلبث بواتييه أن ينال ثقتهما وإن كان الفيلم ينتهي من دون معرفة ما إذا كانا سيوافقان على زواج صعب.

كعادته، أمسك سيدني كرامر بالعصا من منتصفها. لم يكن بجرأة نورمان جويسون بل توقف عند حدود صياغة الاحتمال بأن العلاقة العاطفية بين أسود وبيضاء (أو العكس) ممكنة تاركاً الخيط فالتاً في النهاية.

بعد ذلك لم يكن على بواتييه أن يبقى في إطار الأعمال التي تتضمن أبعاداً اجتماعية من هذا النوع. أفلامه خلال السبعينات ابتعدت عن الموضوع العنصري بالكامل في الوسترن «بك والمبشر»، الذي تصدّى له مخرجاً بواتييه ذاته، وفي الدراما «ديسمبر الدافئ» (ثاني أفلامه مخرجاً، 1974) والفيلم التشويقي «مؤامرة ويلبي» (رالف نلسون، 1975) و«أطلق لتقتل» Shoot to Kill (روجر سبوتسوود، 1988).

في عام 1997، وبعد انقطاع دام خمس سنوات شارك في دور رئيسي في فيلم «الضبع» (The Jackal) لمايكل كاتون جونز ولجانب رتشارد غير، وكان ذلك آخر وقوف له أمام كاميرا الشاشات الكبيرة.

في سنة 2002 نال بواتييه أوسكاراً آخر، لكن هذه المرّة جاء الأوسكار شرفياً ضمن مباركة الوسط السينمائي له.

لم يكن سيدني بواتييه، بالطبع، أول ممثل أسود البشرة يقف أمام الكاميرا. سبقه كثيرون جداً من أيام السينما الصامتة. لكنه كان الأول الذي فتح الباب واسعاً أمام رفاق الأمس من أترابه. فبسبب هذا النجاح، أدركت هوليوود أن إحلال ممثلين سود آخرين (مثل جيم براون ورتشارد راوندتري وأوسي ديفيز ويافت كوتو وجيمس إيرل جونز وبام غرير وسيسيلي تايسن ولويس غوزيت وسواهم) في بطولة أفلامها يمكن أن يأتي بربح وفير وهذا ما حدث بالفعل إذ تنافست ستوديوهاتها خلال أواخر الستينات وطوال السبعينات على استثمار هذه السوق بسلسلة أفلام رأينا فيها الرجل الأسود يقارع وينتصر على الرجل الأبيض، لكن معظمها كان رخيص الصنع وتجاري الهدف ومستنسخاً عن سواه.

عن الشرق الاوسط

سيدني بواتيي.. حكيم هوليود الذي صفع عنصرية الرجل الأبيض

أحمد حموش

أثناء قراءة سيناريو فيلم " The Heat of the Night" الذي صدر عام 1967، اكتشف سيدني بواتيي أن هناك مشهدا يجمعه هو ضابط الشرطة الذي يحقق في جريمة قتل، مع شخص يشتبه في كونه مرتكبها. خلال المشهد الأصلي، يبادر المتهم بصفع ضابط الشرطة دون أدنى رد فعل من الضابط.. ولا يجوز لمتهم أن يصفع ضابطا، ولا يجوز أن يظهر ذلك في الفيلم فقط لأن الضابط أسود البشرة ! لذلك بادر بواتيي وطلب من القائمين على الفيلم تغيير اللقطة، وأن يبادر الضابط -أسود البشرة- برد الصفعة في لحظتها دون تردد، وذلك ما حدث ! كان مشهدا خياليا جاء في أوج عنصرية وتسلط البيض واليمين المتطرف، وفي أوج الصراع حول الحقوق المدنية للأميركيين من أصل أفريقي، وهو صراع خلف ضحايا كثر في مقدمتهم مالكوم إكس، ومارتن لوثر كينغ جونيور.. وخلد التاريخ هذا المشهد !

قل لا

برغم الظروف الصعبة التي عاشها بواتيي خلال بداياته في عالم السينما، إلا أنه كان حريصا على أن يقول "لا" للعديد من سيناريوهات الأفلام التي تقترح عليه، إذا ما رأى أنها تقدم الرجل الأسود بطريقة غير صحيحة. وعندما كانت هوليود تفرض عليه كممثل أسود التوقيع -مع بداية تصوير بعض أفلامه- على وثيقة تثبت أنه بريء من الارتباط بأسماء قيادات تاريخية لحركة الحقوق المدنية كان يرفض. وظل يؤكد دائما تقديره واحترامه لتلك الأسماء المغضوب عليها من طرف الأجهزة الأمنية الأميركية، وبعضهم كانوا من أصدقائه. وكان يؤيده في موقفه ذاك مخرجو ومنتجو أفلام اشتغل فيها، وهم من البيض الذي فتح الله بصيرتهم.

الأصل والهوية

سيدني بواتيي، لم يتنكر لأصله يوما، وهو المنحدر من أسرة فقيرة عاشت بجزيرة كات آيلاند بالباهاماس، وأبوه كان فلاحا يزرع الطماطم، وأمه ربة بيت أفنت حياتها لأجل إسعاده هو وإخوته. عاشوا تحت خط الفقر، لدرجة أن سيدني كان يذهب أحيانا إلى المدرسة مرتديا سروالا صنعته له أمه من ثوب كيس الدقيق.. فيذهب والعلامة التجارية للشركة المصنعة للدقيق ظاهرة للعيان ! لم يكد يبلغ سن المراهقة حتى سافر إلى ميامي بحثا عن عمل، وهو طفل شبه أمي لا يكاد يعرف من اللغة الإنجيلزية شيئا، فاشتغل بغسل الصحون، وذلك أقصى ما كان يجود به الرجل الأبيض في بعض المناطق على الرجل الأسود، ثم عمل بمهن مختلفة وانتقل من مكان إلى مكان بحثا عن الأفضل.. كان يقول إنه علم أنه ولد ببشرة سوداء في كات آيلاند، لكن أحدا لم يخبره بأن ذلك اللون هو إدانة له.. كان يعيش في جزيرته كأي طفل عادي، ولم يحس بتلك الإدانة إلا عندما رحل إلى ميامي، ثم بعدها إلى مدن وولايات أميركية أخرى قبل أن يستقر بنيويورك.. مقاومته لتلك العنصرية البغيضة كانت تنبع من شيء واحد، حكاه في كتابه "معيار رجل" قال إنه عندما وضع رجله على الأراضي الأميركية وواجهه سؤال الهوية عندما اصطدم بجبل العنصرية، وجد الجواب واضحا ناصحا جليا.. لقد علم من يكون فأنير له الطريق ! تربية ومبادئ رباه والداه على الجدية وحب العمل وحب الحياة.. حتى إن والدته وقد أخذته يوما إلى شاطئ البحر في الجزيرة الصغيرة التي يحيط بها البحر من كل جانب، تركته -وهو الطفل الصغير- يصارع الأمواج الصغيرة على الشاطئ ليتعلم السباحة وتدبير شؤونه بنفسه.. يحكي أنه تعلم من تلك التجربة الشيء الكثير.. كان يلعب ويمرح مع رفاقه، ويخوض مغامرات كادت بعضها تودي بحياته، لكنه تعلم الدرس جيدا.. تعلم أن على هذه الأرض ما يستحق الحياة بتعبير الراحل محمود درويش، وتعلم أن الحياة نعمة، وأن النجاح والسعادة ثمرة صناعة أساسها الثقة والصبر والمثابرة. وتعلم أيضا أن الآخر متى استهزأ بك أو احتقرك، فعليك أن تبرهن له بالفعل وليس بالقول أنك الأفضل، وأن ترفع سقف الطموح والنجاح عاليا ! كان يرى أباه وهو يكد ليل نهار ليجلب لهم ما يسد رمقهم، وكان يرى أمه وهي تفني عمرها في تدبير شؤون البيت والأطفال دون كلل أو ملل.. ووسط تلك الظروف الصعبة، كان يجدان الوقت للترفيه عن أبنائهم واللعب والضحك والاستمتاع بالحياة.. بتلك القيم والمبادئ التي تعلمها في منزله البسيط بكات آيلاند، قاوم سيدني بواتيي نظرات الاستصغار والاحتقار التي كان يراها في عيني العنصرية في كل مكان..

عالم غريب

وقصة دخول عالم برودواي وهوليود قصة غريبة تبرهن على أن الرجل فعلا علم من يكون فلم تزده موجات العنصرية إلا قوة وصمودا.. وهو يغسل الصحون في أحد المطاعم ذات يوم، اطلع على جريدة باحثا عن عرض عمل في غسل الصحون لكن بأجر أفضل.. لم يكن يتصور وهو في تلك السن أن يبحث عن عمل غير غسل الصحون.. فوجئ بإعلان في الجريدة يطلب عناصر لها خبرة بالتمثيل بغرض التوظيف.. عمل ووظيفة وأجر، هذا عز الطلب بالنسبة للمراهق الصغير، ولا يهم أن يكون في مجال غير مجال غير الصحون.. تقدم بثقة واستقبله المشرف على الامتحان وقدم إليه سيناريو لقراءة مقاطع منه.. سيدني، وقتها، بدأ يقرأ ويتلعثم ويتوقف ويعود للبداية كأي طفل بدأ تهجي الحروف لتوه، فما كان من المشرف على الامتحان إلا أن قام وحمل سيدني وألقاه خارج البيت ! لم يتوقف بعدها، بل أصر على أن يكرر التجربة، وبدأ داخل المطعم الذي يغسل صحونه، يتعلم الإنجليزية -نطقا وكتابة- بمساعدة أحد رواد المطعم.. بعد نهاية وقت العمل، يجلسان معا بإحدى الطاولات ثم يبدأ سيدني بقراءة مقال في الجريدة ونطق الكلمات بشكل صحيح، ويوما بعد يوم بدأت تتحسن علاقته بالإنجليزية، ثم ما لبث أن تقدم للتمثيل مرة أخرى ورُفض مجددا، واقترح على المشرفة على المسرح أن يشتغل عندهم ساعيا يعد المشروبات مقابل أن يتعلم ! وكان له ذلك، وجاءته الفرصة ليمثل، وكان مشاركته الأولى كارثية، حيث اختلط عليه ترتيب فقرات حواره، ما أربك من يقف أمامه من ممثلين في المسرحية، فنشأ وضع غريب جعل الجمهور يغرق بالضحك معتقدين أن نص المسرحية كان بذلك الشكل الكوميدي.

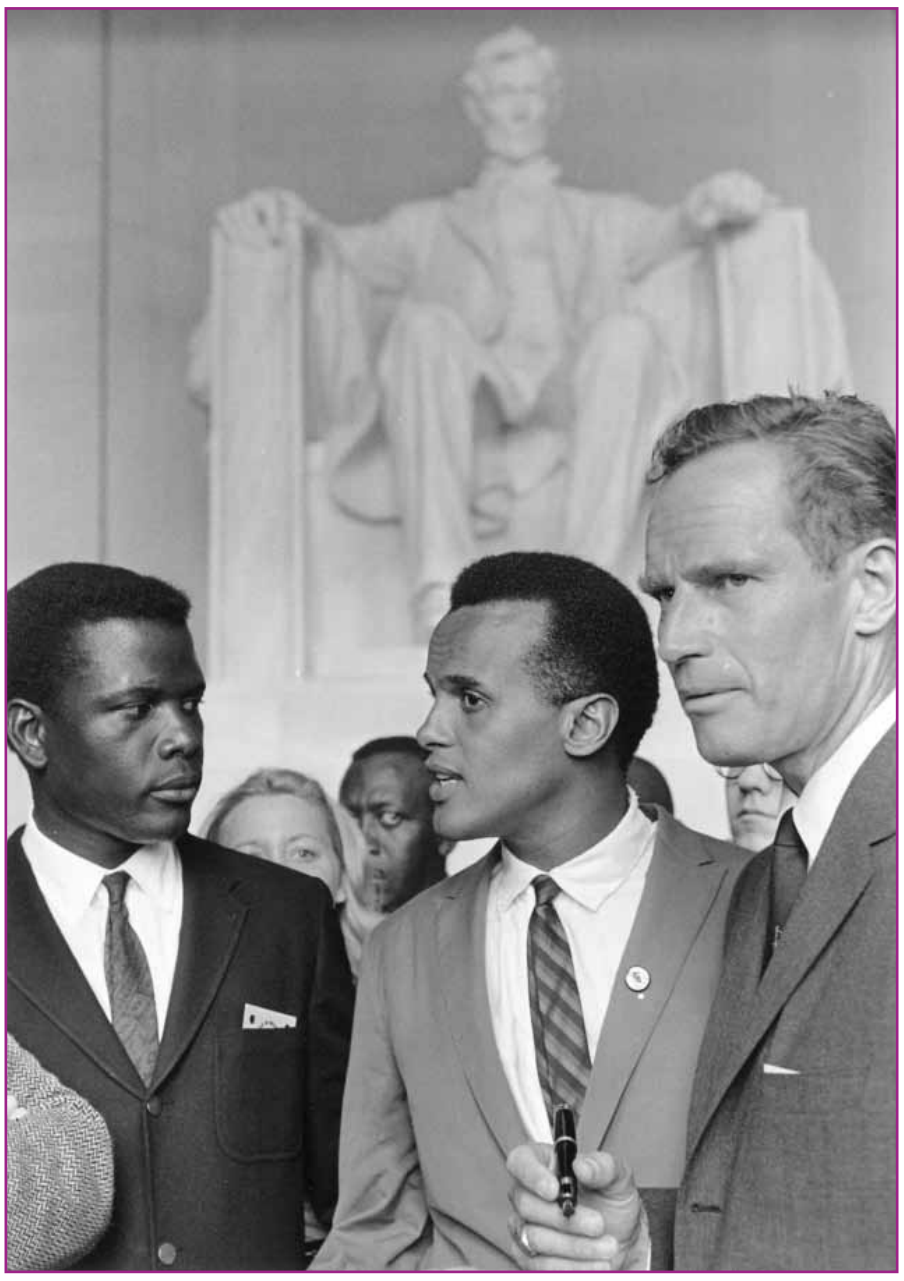

وانطلق القطار، وأصبح سيدني ينطلق من نجاح إلى نجاح، فشارك في أفلام تعتبر الآن من كلاسيكيات هوليود، جعلته يفوز بالأوسكار عام 1964 عن دوره في فيلم "زنابق الحقل الذي كان قد صدر عام 1963. وكان أول رجل أسود يحصل على الأوسكار، مثلما كان أول رجل أسود يقبل فتاة بيضاء في شريط سينمائي ! طريق غير وردية والقول إن سيدني انطلق من نجاح إلى نجاح لا يعني البتة أن طريقه كانت مفروشة بالورود، بل كان الطريق صعبا وشائكا وحالكا.. لم يكن يُقترح لكل الأفلام الكبيرة، وكان يرفض بعضها لإظهارها الرجل ذو البشرة السوداء في صورة غير حقيقية، ما اضطره ليفتح متجرا صغيرا للبيع اللحوم والوجبات السريعة ليلبي حاجات بيته، وزوجته وبناته، وكانت تمر عليه أيام وليس في جيبه الشيء الكثير. وحتى المتجر البسيط اضطر لإغلاقه في نهاية المطاف بعد تراكم المشاكل.. أضف إلى ذلك أن الظروف كلها كانت ضد فكرة المساواة بين المواطنين من جميع الألوان، والرجل الأسود كان يجب أن يبقى دائما في مرتبة أدنى.. ويحكي سيدني أن هذه النظرة كانت تظهر حتى على وجوه بعض من شارك معهم في تمثيل بعض الأفلام.. ليست سينما فقط لكن برغم ذلك، ووسط صقيع العنصرية، كانت هناك نقاط ضوء تمثلت في بعض المخرجين والمنتجين الذين كانت لهم رؤية وتبصر، عملوا على إصدار أفلام يشارك فيه سود، وتروج لخطاب التآخي والعدل والمساواة بغض النظر عن لون البشرة. ومن أبرز تلك الأفلام كان فيلم "The Defiant Ones"، الذي يحكي قصة سجينين يفران من سجنهما ويتيهان وسط الحقول، ومجبران على التعاون ليبقيا على قيد الحياة.. وآخر لقطة في الفيلم تعد من المشاهد السينمائية الرائعة التي ألهمت كثيرا من المخرجين لاحقا، إذ ينجح الرجل الأسود (سيدني بواتيي) في الوصول للقطار المتحرك، لكن صديقه الأبيض (توني كورتيس) لم يقدر على ذلك وقد أنهكه التعب، فما لبث أن قفز سيدني وعاد إلى صديقه، مفضلا البقاء معه وخوض المغامرة معا، عوض الفرار بجلده لوحده.. فالمصير واحد ! مناقشة بديعة لفكرة التعايش بين الألوان والأعراق، وخاتمة ملهمة تؤكد أهمية التعاون لأن المصير مشترك، بعيدا عن ظلمات سجن العنصرية والتمييز الظالم.

صعوده إلى الخشبة للحصول على جائزة الأوسكار في تلك السنوات القاسية كان حدثا ألهم كثيرا من الأميركيين من أصل أفريقي، ولم تكن تلك الخطوات القليلة التي خطاها سيدني متوجها من كرسيه نحو الخشبة مجرد خطوات عادية، بل كانت في حقيقتها خطوات عملاقة، قفز بها الرجل على حواجز لا حصر لها من العنصرية والحقد والاحتقار للرجل الأسود.. تلك الخطوات الملهمة، صنعت قمما أميركية في مجالات مختلفة أحدها مجال الإعلام، وأوبروا وينفري -كمثال وليس للحصر- لا تنفك تردد أن تلك اللقطة غيرت حياتها للأبد، وجعلتها تتساءل عن هويتها وتبصر أنه يمكن لها أن تصنع من نفسها شيئا ما مستقبلا.

رحل سيدني بواتيي عن عالمنا قبل أيام، ورحلت معه إحدى آخر نسمات زمان السينما الجميل، الذي كان يحرص رواده على أن تصل كلمة الفن السابع للجميع في قالب فني ترفيهي راق. جاء طفلا من جزيرة صغيرة لا يكاد يسمع بها أحد، ورحل واسمه عنوان لمدرسة سينمائية مهمة أركانها المبدأ والجد والمواجهة والتفوق.. لم يأت إلى هوليود طفلا مدللا ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، بل حفر مكانته ودوره وضحى لأجل ذلك، ومع ذلك لم يزده كفاحه إلا تواضعا وحكمة، ولم ينطلق يخرق الأرض مختالا فخورا.. رحل سيدني بواتيي ورفاقه ما يزالون يبحثون -مجددا- عمن يوجه الصفعة للمتهم بجريمة القتل..

عن جريدة الوطن المصرية

لا ينظر الأمريكيون الأفارقة ، ومعهم نسبة كبيرة من الأغلبية البيضاء والأقليات الأخرى، إلى سيدني بواتيه كممثل فقط، بل يعتبرونه رمزًا إنسانيًا، ومفكرًا كبيرًا، وعلمًا بارزًا، ودبلوماسيًا، ومخرجًا ناجحًا، وفوق هذا وذاك داعيًا للحرية ومكافحًا ضد العنصرية والتمييز، فإنه يحتل في عالم الفن مكانة تقترب من مارتن لوثر كينج، داعي الحقوق المدنية الشهير، على الساحة السياسية الأمريكية.

سيدني بواتيه.. صاحب أول قبلة على خد ممثلة بيضاء

حنان أبوالضياء

حيث إن السينما العالمية أصبح لها مذاق إبداعي خاص بعبقرية "السير سيدني بواتيه"، المولود في ٢٠ فبراير ١٩٢٧ في مدينة ميامي بولاية فلوريدا، التي هي جزء من الجنوب العنصري ضد السود، فالقليل يعرف أنه تم تسجيل ميلاده في ميامي، ولكنه في الواقع ولد في عرض البحر بسفينة قادمة من جزر البهاما، مع والده الذي تعود أصوله إلى "هايتي"، إحدى بلدان البحر الكاريبي، ووالدته التي تنتمي إلى جزر البهاما، وكان والداه فلاحين يزرعان الطماطم ويبيعانها بالأسواق.

وتم تسجيل ميلاد بواتيه في ميامي، لأن السفينة كانت أقرب إلى مياه فلوريدا من أي مكان آخر، وبالتالي أعتُبر الرجل أمريكي الميلاد.

ويعد بواتيه من أوائل الأمريكيين الأفارقة الذين اخترقوا أجواء السينما الأمريكية، فهو أول ممثل أسود يحصل على جائزة الأوسكار، ففتح الباب أمام ممثلين سود حصلوا على الجائزة وهم دينزل واشنطن، وفورست ويتاكر عن دوره في فيلم "آخر ملوك أسكتلندا"، ووِيل سميث عن دوره في فيلم "ملاحقة السعادة"، وجنيفر هدسون عن دورها المساند في "فتيات الأحلام"، وإيدي ميرفي عن دوره أيضًا في "فتيات الأحلام"، وكذلك جيمون هونسو عن دوره المساند في فيلم "مجوهرات الدم"، ولكن يبقى الفضل الأكبر في فتح الباب أمام الممثلين السود في حصد الجوائز، هو صاحب التحفة الإبداعية "خمّن من سيأتي للعشاء"، وفيلمه عن "نيلسون مانديلا."

وحصل بواتيه عام ١٩٩٩ على الترتيب ٢٢، لأفضل ممثلي السينما الأمريكية على الإطلاق عبر ١٠٠عام، وذلك ضمن فعاليات يقوم بها معهد الفيلم الأمريكي .

وصلت نجومية "سيدني بواتيه" إلى ذروتها في عقدي الخمسينات والستينات من القرن الماضي، حيث حصل سيدني على جائزة في عام ١٩٦٣، عن دوره في فيلم "زهور الحقل Lilies of the Field"، ولكن من الغريب أن كثيرًا من الأمريكيين لا يتذكرونه كأول ممثل أسود يحصل على جائزة "أوسكار"، باعتبار ذلك أبرز إنجاز حققه في مسيرته العملية، ولكنهم يتذكرونه كأول ممثل أسود يطبع قبلة على خد ممثلة بيضاء.

وتعود هذه القبلة إلى عام ١٩٢٧، وهو العام الذي بدأ فيه توزيع جوائز الأوسكار، وأيضًا العام الذي شهد مولد "سيدني بواتيه"، فقد بدأ أحد مسارح نيويورك في ذلك العام بعرض أول مسرحية تجمع بين البيض والسود في عرض واحد، وهي مسرحية "شو بوت" أو "سفينة العرض" التي أعيد تمثيلها مرات عديدة، وفي تلك المسرحية ظهر ممثل أسود بجانب ممثلة بيضاء تغيرت شخصياتهما من عرض لآخر، ولكن كل من أدى الدور لم يجرؤ على تقبيل الممثلة البيضاء، ولا حتى على جبينها لأن تقبيل الرجل الأسود لامرأة بيضاء كان يمثل . بمقاييس ذلك الوقت . جريمة اجتماعية غير مقبولة، بل إن الجمع بين ممثل أسود وممثلة بيضاء في مسرحية واحدة كان زلزالاً كبيرًا . وفقًا لتلك المقاييس .. وبعد أربعين سنة من عرض تلك المسرحية، وعلى وجه التحديد في سنة ١٩٦٧ جاء فيلم "خمّن من سيأتي إلى العشاء؟" الذي تحول إلى مسرحية فيما بعد، وجمع الممثل "سيدني بواتيه" مع امرأة بيضاء فخرج "بواتيه" عن النص، أو هكذا فهم المتفرجون عندما شاهدوه يطبع قبلة ساخنة على خد الممثلة البيضاء، وذلك بالتزامن مع تصاعد سخونة حركة التحرر ضد التمييز في الستينيات التي قادها زعماء سود من بينهم "مارتن لوثر كينج"، ودعاة الحقوق المدنية الآخرون .

وحاز فيلم "خمّن من سيأتي إلى العشاء؟" جوائز متعددة واعتبر في وقته ثورة في موقف الأفلام من التفرقة العنصرية ضد السود، لأنه يناقش إمكانية الزواج بين رجل أسود وامرأة بيضاء، ويقدم القضية بشكل طريف، حيث ينتظر الأب والأم ابنتهما وخطيبها ويعدان العدة لهذا الحدث، إلى أن يفاجأ الأبوان أن الخطيب المفترض شاب أسود "بواتيه" وهم أسرة من البيض المتشددين، فيرفض الأب هذه الزيجة ويحاول أن يقف دون إتمامها.

وفيلم "خمّن من سيأتي إلى العشاء"؟ كان من أنجح أفلام "بواتيه"، لكنه لم يحصل فيه على جائزة "أوسكار"، بل حصل بعده على المزيد من الإعجاب بين الأمريكيين الأفارقة والأقليات الأخرى، حيث كانت شخصية "بواتيه" تجذب دعاة التحرر لما كان يتمتع به من شخصية قوية وثورية، وقدرة وكاريزما، بل إنه شارك "مارتن لوثر كينج" مسيرته الشهيرة في واشنطن، وألقى خطابًا أمام الجماهير في نفس اليوم الذي ألقى فيه "كينج" خطابه مفصحًا فيه عن حلمه بمجتمع خال من العنصرية.

وأتيحت الفرصة لـ "سيدني بواتيه" وهو في السادسة عشرة أن ينتقل إلى نيويورك، حيث وجد هناك عملاً في غسل الصحون بأحد المطاعم التابعة لمسرح من مسارح نيويورك، وعانى صعوبات معيشية في نيويورك كما تعرض للطرد من المنزل الذي كان يسكنه بسبب عجزه عن دفع الإيجار، واعتقلته الشرطة لذات السبب.

ثم تطور عمله إلى فراش في المسرح ذاته التابع للأمريكيين الزنوج، حيث كان يتولى تنظيف قاعات المسرح في نيويورك قبل دخول المتفرجين، وكان يتسنى له أثناء أداء عمله مشاهدة الممثلين وهم يتمرنون على أداء أدوارهم فتلقى بعيون المشاهد الثاقبة أول دروسه في التمثيل من خلال ملاحظته للممثلين، لكنه لم يكتف بذلك، بل قرر في وقت لاحق أن يتنازل عن جزء من أجره في التنظيف مقابل أن يسمح له القائمون على المسرح بتلقي دروس حقيقية في التمثيل، وكانت هذه الخطوة مفصلية في حياته، إذ سرعان ما أثبت أن لديه موهبة في تقليد الحركات والأصوات، وأسند إليه دور بسيط في مسرحية عنوانها "أيام في شبابنا".

وعندما غاب أحد الممثلين الرئيسيين في المسرحية ذاتها لظرف طارئ في إحدى الليالي، لم يجد القائمون على المسرح شخصًا قادرًا على أداء دوره سوى "بواتيه"، وهو الأمر الذي أتاح للممثل الصاعد الفرصة لصقل مواهبه، وجاءت أدوار أخرى بعضها صغير وبعضها أكبر حجمًا في مسرحيات أخرى، إلا أن الفرصة الأكثر أهمية أتت إليه عام ١٩٥٠ ليلتحق بعالم التمثيل السينمائي هذه المرة، ففي ذلك العام لعب "بواتيه" دورًا مهمًا في فيلم "لا مجال للخروج"، وهو من أوائل أفلام العنف التي تحكي قصة من قصص الكراهية العنصرية .

وجعله هذا الفيلم بطلاً ليس بين الممثلين فقط، ولكن بين مجتمع الأمريكيين السود كليًا وصنع له أيضًا شعبية في جزر البهاما التي تعود جذوره إليها، وبسبب هذا الفيلم ظهرت احتجاجات في جزر البهاما، لأن الحكومة التابعة للاستعمار البريطاني هناك حاولت منع الفيلم، الأمر الذي توالت بعده الأحداث بتشكيل دعاة التحرر لحزب سياسي تمكن في النهاية من إطاحة الحكم البريطاني.

وطوال عقد الخمسينات من القرن الماضي استمر “بواتيه” في أداء أكثر الأدوار إثارة للجدل، في ذلك الوقت، وتعامل في أفلامه مع قضايا حساسة جدًا، أهمها المساواة العرقية، وتناول في أفلامه التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، وكأنه يريد أن يتحدث عما يجري في أمريكا نفسها وليس في “جوهانسبرج”، كما تناول بعد ذلك قضايا الأمريكيين السود داخل الولايات المتحدة بعد أن تفاقمت مشكلاتهم وتصاعدت حركة التحرر بينهم .

وفي عام ١٩٥٩ عاد مرة أخرى إلى خشبة المسرح في شارع “برودواي” بنيويورك، في مسرحية تروي قصة حياة أسرة أمريكية سوداء، لكنه لم يترك السينما، بل استمر فيها مشاركًا في أفلام صنعت له شهرة كبيرة في هوليوود.

ومن أبرز الأدوار التي قام بها في الستينات من القرن الماضي، دور محقق سري أسود قادم من الشمال، حاول فك لغز جريمة قتل وقعت في إحدى ولايات الجنوب، لكنه واجه أثناء عمله مشكلة التفرقة العنصرية وعدم المساواة، ونظرات الشك والريبة بين مسؤولي الجنوب .

وفي ٢٨ أب ١٩٦٣ كان “بواتيه” واحدًا من بين أكثر من ربع مليون شخص تجمعوا قرب نصب “لنكولن” التذكاري بواشنطن للمطالبة بـ “الحرية والمساواة”، وشملت قائمة الخطباء “متحدثين” من كل قطاع للمجتمع، بينهم زعماء عماليون مثل “والتر روثر”، ورجال دين، وكان النجم الأسود “سيدني بواتيه” من بين أبرز المتحدثين، وأعطي كل متحدث خمس عشرة دقيقة .

وفي ذلك اليوم كان “مارتن لوثر كينج” على وشك أن يجلس، عندما قالت له مغنية الأناشيد الدينية “ماهاليا جاكسون”: “حدثهم عن حلمك يا مارتن.. حدثهم عن حلمك!”.. واستعان الداعية الأسود ببعض كلماته المعدة سلفًا متشجعًا بنداءات الجمهور في الحديث عن حلم لم يسع لتحقيقه وحده، بل أيضا مع آخرين مثل “سيدني بواتيه”، وكل القيادات السوداء المتجمعة في الساحة في مجتمع متعدد الأعراق والألوان.

ولقد شارك “سيدني بواتيه”، “مارتن لوثر كينج” حلمه، وأنشد الجميع أغنيتهم المفضلة “أحرار في النهاية”! لكن الحرية كان لها ضريبة كبيرة، ففي سنين متقاربة من عقد الستينات اختطف الرصاص أهم شخصيتين من دعاة الحقوق المدنية السود، وهما داعية الحقوق “مالكولم إكس” في ١٩٦٥، ومعلمه “مارتن لوثر كينج” في ١٩٦٨ .

وشعر “بواتيه” أن الأمريكيين الأفارقة أنفسهم غاضبون منه ويتهمونه بالتهاون في تناول قضاياهم، متناسين كل أدواره، فخشي أن ينتهي مصيره إلى ما انتهى إليه مصير “مالكولم إكس”، و“مارتن لوثر كينج”، فقرر المغادرة إلى جزر “البهاما” للإقامة هناك.

وعندما عاد “بواتيه” إلى المهنة في وقت لاحق، اختار أن تكون عودته من باب الإخراج، حيث أخرج عددًا من أفلام الترفيه، وبعد انقطاع دام حوالي عقد كامل عاد إلى التمثيل مرة أخرى عام ١٩٨٨، في فيلم “SHOOT TO KILL”.

وبما أن “بواتيه” كان أول ممثل يتناول مشكلة العزل العنصري في جنوب إفريقيا في الخمسينات، فقد لعب مرة أخرى أهم الأدوار في حياته وهو دور “نيلسون مانديلا”، وذلك عام ١٩٩٧ في فيلم وثائقي حاز إعجاب العالم، وما من شك أن من شاهد الفيلم قد صعب عليه التفريق بين شخصية الرجلين، إذ إن بواتيه جسد شخصية “مانديلا” وكأنه هو بالفعل، فقضيتهما واحدة، وسنهما متقاربة، ومشاعرهما أيضًا متقاربة .

وحصل “بواتيه” في ٢٠٠٢ على جائزة خاصة تكريمًا لمسيرته الفنية على الشاشة الفضية، كما أنه حظي باحترام واسع ليس في أمريكا وحدها، بل على نطاق العالم، وقد بادرت فرنسا بتكريمه أثناء مشاركته في مهرجان “كان” السينمائي ٢٠٠٦ في دورته التاسعة والخمسين، لإسهاماته التي كسرت الحواجز العنصرية أمام الممثلين السود في عاصمة السينما هوليوود.

وقام وزير الثقافة الفرنسي بتقليد “بواتيه” وسام الفنون برتبة فارس، وخاطبه قائلا “إنك يا بواتيه بطل المساواة بين الرجال”.

وفي حفل التكريم، شكر “بواتيه” والديه عاملي الحقول في البهاما، على روح الصدق والكرامة والحنان التي اكتسبها منهما، كذلك شكر المخرجين الذين كسروا التقليد السائد في بداية انطلاقته السينمائية وقاموا بتوظيفه، واصفًا إياهم بـ “الرجال الذين اختاروا تغيير النمط السائد، لأنه غير ديمقراطي، وغير أمريكي وغير إنساني”.

يشار إلى أن عدد زوار المهرجان بلغ أثناء تكريم “بواتيه” أكثر من ٣٠ ألفًا، منهم ٥ آلاف صحفي و١٠ آلاف مشارك، وارتفع عدد سكان مدينة “كان” أيام المهرجان من ٧٠ ألف نسمة إلى ٢٠٠ ألف نسمة، وعندما جرى تكريم الممثل “سيدني بواتيه”، ظلت القاعة تدوي له بالتصفيق طويلاً إعجابًا وتقديرًا لمشواره الفني الحافل.

وكانت هناك ملاحظة جديرة بالتأمل، إذ إنه عندما انتهى الحفل صعد عمال النظافة والفراشون إلى المسرح فنظر إليهم “بواتيه” مبتسمًا، وهم يفكون الديكورات وينظفون الأرض بالمكانس اليدوية والكهربائية، ويبدو أنه تذكر حياته الماضية عندما كان واحدًا من هؤلاء في بداية عهده بخشبة المسرح في فترة ما قبل التمثيل.

وشارك “بواتيه” في المهرجان بأفلام عدة، ومن الأفلام التي يتذكرها محبوه، فيلمه “To Sir With Love” الذي أجاد فيه تجسيد شخصية أستاذ مدرسة عام ١٩٦٧، حيث كان الرجل عملاقًا على الشاشة، وطغت شخصيته على كل الشخصيات الأخرى بسبب إتقان أداء دور المدرس، الذي انتشل مجموعة من الطلبة والطالبات اللامبالين من حافة الهاوية إلى مواطنين صالحين وجادين في طلب العلم، كما عمل على تشجيعهم وإبعادهم عن سلوكيات احتقار المعلم والإساءة إليه.

وبعيدًا عن الشخصيات المتنوعة التي لعبها “بواتيه” في حياته المهنية، فإنه أيضا على المستوى الشخصي متعدد الجنسيات، إذ إنه مواطن في جزر البهاما بحكم الجذور، وهو أمريكي الجنسية بحكم شهادة الميلاد، وهو كذلك بريطاني بحكم انتمائه لمستعمرة بريطانية، وكان قد تم تنصيبه عام ١٩٧٤ “كفارس” وهو التعيين الذي يخوّله حمل لقب “سير”، ولكنه رفض حمل اللقب.

وفي مقابل رفضه لحمل لقب “سير”، فإنه لم يمانع أن يعين في ١٩٩٧ سفيرًا غير مقيم، وممثلاً للبهاما في اليابان، وكذلك سفيرًا للبهاما في منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم “اليونسكو”.

ولكنه في الولايات المتحدة، يمارس نشاطًا سياسيًا واجتماعيًا بصورة دائمة ويتنقل بين الولايات، ويزور الكليات والجامعات متفقدًا الطلبة البيض والسود على حد سواء .

واختير “بواتيه” في أتلانتا بولاية جورجيا كواحد من بين ١٣ أمريكيًا “سود”، كانت لهم بصمات مؤثرة واضحة على مجتمع الأمريكيين من أصول إفريقية، وذلك اعترافًا بالأدوار الحقيقية التي قام بها في حياته وليس أدواره التمثيلية فقط، حيث كرمه أوباما ضمن ٥٠ شخصية قائلاً “هؤلاء الرجال والنساء المهيبون يأتون من جميع الأوساط، لكنهم يتشاطرون سمة واحدة هي أن كل واحد منهم كان عامل تغيير، وكل منهم تأمل عالمًا ناقصًا والتزم بتحسينه عبر مواجهة مصاعب جمة على امتداد مشوار حياته”

عن موقع سينماتيك

ماذا يعني أن يكسر «فلاح» أسود جدار العنصرية في هوليوود؟

سيدني بواتييه الممثل الأسطورةٍ كان في طليعة تحرير السود الأميركيين سينمائيا بموهبته الكبيرة

مَن لا يتذكر الطبيب الأسمر الوسيم الطويل القامة الذي يزور عائلة الفتاة التي يحبها لطلب يدها من أهلها، في الفيلم الطليعي "هل تعلم مَن سيأتي إلى العشاء؟" لستانلي كرايمر؟ حمل هذا الطبيب الثلاثيني المحترم ملامح الممثل سيدني بواتييه، ولكونه رجلاً أسود البشرة يطلب يد فتاة بيضاء من عائلة ميسورة، فكان يواجه واحدة من أقسى التجارب في حياته.

هوفيك حبشيان

الفيلم خرج في العام ١٩٦٧، في الفترة التي كانت بدأت تتغير فيها أحوال الأفارقة الأميركيين في أميركا، وأصبح من كلاسيكيات هوليوود في ما بعد. هذا فيلم شاهده آباؤنا وقد ورثناه نحن الأجيال التالية منهم، مع كل ما حمله بالنسبة للفئات المسحوقة من معنى وأبعاد، جاءت في اطار من الكوميديا الهادفة. وقد بثّته شاشات التلفزة مراراً وتكراراً كوجبة سينمائية خفيفة تناسب الجميع، ثم دخل معاجم السينما. سيدني بواتييه كان الرابح الأكبر، فقد "نجّم" من بعده، وبات من الصعب تخيّل الفيلم من دون حضوره الآثر. وفي لحظة رحيله عن ٩٤ عاماً، تبقى صورته في السيارة إلى جانب كاثرين هاوتون، من أول المشاهد التي تجتاح المخيلة، بالرغم من ان الرجل لعب في عشرات الأفلام منذ بداياته في مطلع الخمسينات.

قبل دنزل واشنطن ومورغان فريمان وويل سميث وغيرهم من الأفارقة الأميركيين الذين غزوا السينما الأميركية والهوليوودية، كان هناك ما يسمى سيدني بواتييه. معلومة يجب تذكيرها للجيل الجديد الذي يجهل الرجل الإسطورة الذي كان من رواد حركة تحرير السود سينمائياً، وأول ممثّل استطاع محاربة التنميط والعنصرية في هوليوود، ولو بسيناريوهات مكتوبة بأيادٍ بيض. وهو تاريخياً أول ممثل أسمر نال جائزة "أوسكار" أفضل ممثل عن دوره في "زنابق الحقل" لرالف نيلسون في العام ١٩٦٤، بالاضافة إلى فوزه بـ"الكرة الذهبية" وجائزة التمثيل في مهرجان برلين. هذا كله قبل أربع سنوات فقط من اغتيال مارتن لوثر كينغ.

صحيح ان "هل تعلم مَن سيأتي إلى العشاء؟" بات الأكثر تعبيراً عن كيان بواتييه، وذلك لرمزيته ولأهميته في إطلاق مسيرته عالمياً، ولمثوله أطول فترة ممكنة في وجدان المشاهدين، إلا أن للرجل مساهمات فنية أخرى كثيرة، وأدواراً مهمة لا يمكن تجاهلها، وهي أدوار لعبها بإتقان شديد في عدد من الأفلام، أبرزها: "المستفزون" (١٩٥٨) لستانلي كرايمر؛ فيلم مغامرة عن سجينين فارين، أحدهما أسود والآخر أبيض. مشكلتهما انهما مقيدان بعضهما ببعض، الأمر الذي يعني انه يجب عليهما التعاون للنجاة معاً. إلى جانب بواتييه، نجد النجم الكبير توني كرتيس، والفيلم رُشح وقتها لتسع جوائز أوسكار نال منها جائزة التصوير والسيناريو الأصلي. فيلم آخر، هو "بورغي وبيس" (١٩٥٩)، هذه المرة تحت إدارة المخرج الكبير أوتو بريمينغر، كان مهماً في سيرته. الفيلم من نوع الميوزيكال وهو مقتبس من عمل أوبرالي يعود إلى العام ١٩٣٥، خلق جدلاً كبيراً عند عرضه، واتهم بتنميط السود والاستحواذ الثقافي على خلفية حب وصداقة، عنف ومخدرات.

دائماً في لائحة الأفلام المهمة التي مثّل فيها بواتييه، نجد "كروم في الشمس" (١٩٦١) لدانيال بتري. تدور الحكاية في الخمسينيات: أبطالها أفراد عائلة أميركية فقيرة من أصول أفريقية تعيش في شقة صغيرة في أحد أحياء جنوب شيكاغو. الأم الأرملة تتلقى ذات يوم شيكاً بقيمة عشرة آلاف دولار، وهو مبلغ التأمين على الحياة الذي كان حصل عليه زوجها، فيبدأ الجميع في رسم خطط لمستقبله: هذا يريد شراء منزل في حي محترم، وذاك يطمح إلى انشاء مشروع لبيع الخمور. أما روث، زوجة ابن الأرملة الذي يلعب دوره بواتييه، فلا تريد سوى أن تتوفر لها فرصة لكسب عيش لائق يتيح لها أن تربي ابنهما بشكل سليم. كيف يمكن أن ننسى أيضاً "إلى الاستاذ، مع حبي" (١٩٦٧) وهو واحد من أشهر أفلام بواتييه، الذي يتحدّث عن مشكلة العنصرية في مدرسة داخلية بريطانية. مخرج الفيلم هو جيمس كلافيل الذي اقتبس هنا سيرة ذاتية. مارك ثاكيراي (بواتييه) شاب أسمر البشرة يوافق على التدريس في ثانوية لندنية، تضم مجموعة من المراهقين من البيض المتحدرين من الطبقة الفقيرة، والمنغلقين على كل أشكال الحوار. الكثير من الصدامات تحدث في هذا المكان، بالتزامن مع صعود التعصب ضد السود في فترة الستينيات، لكن في النهاية يلجأ الاستاذ إلى أساليبه الخاصة بعيداً من النظريات الدراسية. يذكر أن بواتييه أعاد تمثيل هذا الدور بعد ثلاثين عاماً في مسلسل تلفزيوني.

يبقى "في حرارة الليل" (١٩٦٧) للمخرج القدير نورمان جيويسون، الذي يُعد من أهم أفلامه، ورفعه إلى مصاف كبار الممثلين من خلال واحد من أهم أدواره. الفيلم نال خمس أوسكارات من بينها أفضل فيلم، وهو يحكي قصّة فيرجيل تيبز، شرطي أسود من شمال الولايات المتحدة يتورط في تحقيق تجري فصوله في منطقة كل سكانها من العنصريين. مع هذا العمل الجميل، تكرس بواتييه نهائياً وبات له جمهوره لا في أميركا فحسب، بل في العالم وأصبح الأعلى أجراً في هوليوود لفترة معينة. حقبة الستينيات ابتسمت في وجهه، ومجلة "فرايتي" كتبت عنه في العام ١٩٦٨ بأنه أفضل ممثّل في ذلك العام من بين السود والبيض مجتمعين. ويقول الناقد السينمائي خليل حنون، بأنه شاهد هذا الفيلم أكثر من ٤ مرات ولا يتردد في مشاهدته كلما سنحت له الفرصة ، فهناك في الفيلم "مبارزة أدائية رائعة بين بواتييه وروود ستايغر الذي فاز يومها بالأوسكار عن دوره فيه". ويتابع قائلاً: "هذا الفيلم شهد لأول مرة على الشاشة رجلاً أسود يصفع رجلاً أبيض، وهذا الأمر كان ممنوعاً في عرف هوليوود. كما كان أول فيلم ملون من بطولة شخصية سوداء، فمديرو التصوير كانوا يجدون صعوبة في إضاءة وجوه الممثلين السود بالألوان، لكن مع هذا الفيلم اكتشفوا الخلطة الإضائية المناسبة».

لم يكن بواتييه ممثلاً كسائر الممثلين الباحثين عن الشهرة والاعتراف، بل كان ملتزماً وناشطاً في مجال حقوق الإنسان، لا سيما السود. جسّد "الكرامة والفضيلة" كما يقول عنه باراك أوباما. أصله من الباهاماس، ولكنه خير من جسّد القيم الأميركية التي سادت في مرحلة من المراحل على الشاشة دفاعاً عن العيش بين الأعراق. كثيرون يدينون له ولنضاله ولموهبته ولشعبيته، فهو شرّع الطريق لجيل كامل من الممثلين الأميركيين الأفارقة الذين ذكرنا بعضهم آنفاً. بالنسبة للجيل الذي اكتشفه في الستينات، ظل بواتييه رمزاً لا يخبو. انه الشخص الفخور الذي لا يبلغ الغرور، الطيب الذي لا يغدو ساذجاً، المرهف الذي لا يسقط في فخ البكائيات. وهو أيضاً، قبل أي شيء آخر، قاس بلا قطرة شر في دمه. شخصية نموذجية عرفت السينما كيف توظفها، وعرف السينمائيون الذين عملوا معه كيف يتعاملون مع سحره وحضوره الكاريزماتي، مستغلين الحاجة القصوى إلى ممثّل يعبر عن هموم السود لتحويله نجماً. لم يلعب في تحف سينمائية خالدة، ولكن دخل التاريخ من بابه الواسع. ابن فلاحين، أمي، هاجر إلى بلد الفرص أميركا حيث عمل في بداية حياته في مهن بلا قيمة منها غسل الصحون، فأصبح "رمزاً جنسياً" في فترة لم يكن ممثّل أسود يحلم بتبادل قبلاً مع ممثلة بيضاء على الشاشة. أغلب الظن انه لم يكن ليتخيل يومها أن أميركا ستنتخب بعد بضعة عقود، رئيساً أسود (أوباما) سيقلّده وسام الحرية الرئاسي.

عن جريدة النهار اللبنانية

سيدني بواتييه..
أدوار ثورية تُحدث انقلاباً في السينما

نديم جرجوره

يصعب التغاضي عن بعض الراهن الأميركي، في تأمّل منبثق من رحيل الممثل سيدني بواتييه (١٩٢٧ ـ ٢٠٢٢). بعضٌ متمثّل بانتخاب أول أفروأميركي رئيساً للولايات المتحدّة الأميركية، باراك أوباما (٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٨)، وبمكانة أفروأميركيين كثيرين في الحياة الأميركية.

بواتييه سيبقى أحد أبرز صانعي الراهن الأميركي، باختراقه جدران نظام عنصري أبيض في "قلعة الديمقراطية"، وبفرضٍ حضور فاعل له في عاصمة الفن السابع (هوليوود)، وفي مواكبة مسار حافل بالصدامات والنزاعات، المؤدّية إلى انقلاب أقدار مُكافحين يوميين، لسنين مديدة، من أجل حقّ طبيعي لهم بأنْ يكونوا بشراً في بلد يأتونه قسراً، فيُعذّبون ويُقتلون ويُذلّون، قبل أنْ يتمكّنوا، جيلاً تلو آخر، من تحطيم أصنام عدّة، ما يُتيح لرجلٍ يُدعى أوباما بلوغ البيت الأبيض. الأسماء كثيرة.

قدرة بواتييه على أن يكون نجماً في زمن التحكّم الأبيض بكل شيء، وبراعته في تأدية أدوار تُساهم، بشكلٍ أو بآخر، في تغيير واقع، وتمكّنه من إيجاد معادلات تبغي انتصاراً للسود في تلك القلعة المخادعة، مسائل تجعل المهنة انعكاساً لنضال ميداني، يترافق ونضالات أناس يصنعون تاريخاً بعد صُنعهم تغييراً: مارتن لوثر كينغ، محمد علي، الفهود السود، أمّة الإسلام، بصرف النظر عن فضائحٍ ومعاركٍ داخلية.

سيدني بواتييه سيكون وجهاً مطلوباً في لاوعي جماعي، لتحقيق اختراقات جمّة، تساهم في تحوّل عدد كبير من الأفروأميركيين إلى نجوم مؤثّرين في مجالات أميركية مختلفة. "كَشف لنا كيف نبلغ النجوم"، تقول ووبي غولدبيرغ في وداع بواتييه. هذا تعبيرٌ يُذكّر بتعابير أخرى ينطق بها أناسٌ مشاهير، يرون في أفعالِ أسلاف لهم تأسيساً لتغيير جذري، تشوبه مصائب إلى الآن، لكنّه عصيٌّ على التوقّف. "بفضل أدواره الثورية، وموهبته المتفرّدة، يُجسِّد (بواتييه)، بفصاحة، الكرامة والنعمة، ويكشف قوّة أفلامه في أن تجمعنا معاً"، يقول باراك أوباما.

مع هذا، يُمكن استعارة قول لإدي مورفي في محمد علي لوصف بواتييه به، لشدّة ما فيه من تطابق، وإن يكنٍ خفياً إلى حدّ ما: "جميع السود الذين يُنجزون أفعالاً رائعة ولافتة للانتباه في الرياضة والأعمال والموسيقى والسياسة، أمثال مايكل جوردان وأوبرا وينفري وباراك أوباما، مدينون لمحمد علي بإنجازاتهم". يقول أيضاً: "علي مسؤولٍ عن كلّ الحاصل لاحقاً: "أنا الأعظم". لم نسمع رجلاً أسود يتلفّظ بقول كهذا. أشعل الفتيل. فكرة "الأسود جميل" عائدة إليه. قبله، كلمة "أسود" تعني شتيمة (...). بالنسبة إليّ، إنّه أعظم الكائنات (التي عاشت) على الأرض" (المجلة السينمائية الفرنسية "بروميير"، مارس/آذار ٢٠٢١).

لبواتييه شيءٌ من هذا. في فيلم «في لهيب الليل»، لنورمان جايزون (١٩٦٧)، يؤدّي بواتييه شخصية شرطيّ أسود في فيلادلفيا، يُحقق في جريمة قتل في المسيسيبي بعد اتّهامه بها بسبب لون بشرته. في "خمّن من سيأتي إلى العشاء لستانلي كرايمر (١٩٦٧)، يظهر طبيباً لامعاً وأستاذاً في الطبّ إلى جانب شابّة بيضاء (٢٣ عاماً)، تدعوه إلى عشاء منزلي لتُعرّفه إلى والديها، منتصف ستينيات القرن الـ٢٠. قبلهما، يُشارك بواتييه في "زبيبٌ في الشمس لدانيال بِتْري (١٩٦١)، غارقاً في عالم شيكاغو، منتصف خمسينيات القرن الماضي،

بكلّ ما في هذا العالم من أحوال قاسية وصدامات تبدو كأنّها غير منتهية. هذه نماذج قليلة للغاية، إزاء عشرات الأفلام والأعمال التلفزيونية والوثائقيات التي له فيها مهنةٌ أو أكثر.

«في لهيب الليل"، المُنجز بعد عام واحد فقط على تأسيسٍ "حزب الفهود السود"، سيكون "فيلماً سياسياً بامتياز"، بحسب تعليقات نقدية متفرّقة. التورّط في المسيسيبي، زمن التوحّش العنصري الأبيض، جزءٌ من معركة أساسية لبواتييه في مسارٍ انتزاع الحقوق المدنية (الطّبيعية أصلاً) للسود، سلمياً. "خمّن من سيأتي إلى العشاء" يُنجز بعد عام واحد على اغتيال مارتن لوثر كينغ (٤ إبريل/نيسان ١٩٦٨). هذه لن تكون عابرة، بل إشارات إلى كيفية إلغاء الحدّ الفاصل بين نضالٍ، يُراد له أن يكون انتصاراً لحقّ مهدور، واشتغالٍ سينمائي يُساهم، إلى جانب النضال، في إحداث ثقب كبير في جدار عنصرية نظامٍ أميركي متكامل، لهَ في هوليوود حيّز واسع.

أصدق وصف لانشغال سيدني بواتييه، "الممثل الأسطوري" (إتيانّ سوران، الصحيفة اليومية الفرنسية "لو فيغارو"، ٧ يناير/كانون الثاني ٢٠٢٢)، في صُنع تغيير جذري وعميقٍ في أميركا، يكمن في قولٍ للممثل مارك روفالو: "فوراً، يتمكّن بواتييه من تبديد المفهوم المنحرف والفاحش للتفوّق الأبيض، بطريقة إنسانية وفنية وكريمة رائعة". فهو، باختصار شديد، يُشارك في أفلام مختلفة، "في زمن شاهد على أنّ الأسود الآخر الذي يعمل في الاستديوهات هو ماسح الأحذية"، يقول بواتييه (١٩٨٨). هذا يُشعره بأنّه وحيدٌ، لكنّه يُدرك تماماً أنّ الطريق تُفتَح للاحقين به، أمثال إدي مورفي وريتشارد برايور وعشرات الآخرين، الذين يُكملون تلك الطريق من بعده: "إنّي نوعٌ من أب لهم، إذ إنّي فتحتُ أمامهم الباب».

هذا لن يكون عادياً. صنيعُه السينمائي، وتدرّجه الهادئ والثابت والعميق من ممثل عادي إلى مؤثّر في المشهد السينمائي العام، في زمن الانغلاق والتقوقع والنبذ والكراهية، يؤدّيان (الصنيع والتدرّج) إلى إشاعة حالة من التحرّر، تُشبه كثيراً تلك الحالة نفسها من التحرّر في الاجتماع والسياسة والحقوق المدنيّة.

لائحة أعماله طويلة. أفلامٌ عدّة له تتفوّق على أخرى في جمالياتها وانشغالاتها الدرامية والفنية، وأيضاً في مسائلها الاجتماعية والثقافية والفكرية. لذا، يُفترضٍ برحيله أن يدفع إلى استعادة حقبة وقراءتها مجدّداً، وإلى التأكّد، مرةٍ أخرى، أنّه يُمكن تحقيق ما يُظنّ أنّه مستحيل، أحياناً.

عن العربي الجديد

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

إحزر من لم يأتِ إلى العشاء

سمير عطا الله

غيّر سيدني بواتييه في طبيعة العلاقة بين البيض والأفرو أميركيين، بقدر ما ساهم في تغييرها مارتن لوثر كينغ وكبار الدعاة والمناضلين. معه، حلت على الشاشة، صورة الشاب الأسود الأكثر وسامة من البطل «الأبيض» والهادئ المثقف الذي – للمرة الأولى في تاريخ هوليوود – هو من يسحر المرأة البيضاء ويجعل الأميركيين يقفون في طوابير لا نهاية لها، أمام دور السينما.

كان والد سيدني بواتييه مزارعاً في جزر من جزر البهاماس. ولم يستطع هو أن يحصل من التعليم أكثر مما يمكنه من قراءة صحيفة. لكنه بين العمل ميكانيكياً وبين دراسة التمثيل باجتهاد، وجد نفسه يلعب دور البطولة في فيلم المخرج ستانلي كرامر «أحزر من جاء إلى العشاء»، وهي حكاية طالبة بيضاء تدعو زميلها الأسود إلى العشاء في منزل أهلها، وعندما يكتشف الأهل أن ضيف ابنتهما أسود، يتسربل الجميع، ويبدأ أحد أجمل الأفلام في تاريخ السينما. جميع الممثلين كانوا من فئة العمالقة، لكن الناس تسمرت أمام أول أسود يلعب دور البطولة: ليس دور الكاوبوي، ولا دور الفار من العدالة، بل دور «الزنجي» المتفوق وسامة وثقافة وخلقاً.

بعدها أصبح بواتييه يلعب الأدوار الرئيسية في كل الأفلام التي يشار فيها، وما بين حضوره الإنساني الراقي، وحضور محمد علي كلاي القوي، وما أدخل الأفرو أميركيون من غناء وجاز وموسيقى وكوميديا، أصبح الفن هو القوة المؤثرة أكثر من غيره. وظلت صورة بواتييه، الذي غاب عن ٩٤ عاماً، في صدر اللوحة المشتركة.

ما بين بدايات بواتييه وغيابه تغير عالم بأكمله ما بين العبودية والحرية. تغيرت أميركا برمتها، وقبل أسابيع فقدت كولن باول، الذي كان قائد الأركان ووزير الدفاع ووزير الخارجية. وأصبحت وزيرة الخارجية امرأة وسمراء أيضاً (كوندوليزا رايس)، كما عينت كامالا هاريس أول نائبة للرئيس، من أصول هندية وكاريبية معاً، مثل بواتييه.

هذا ما يتعارف على تسميته الآن «القوة الناعمة». أي كل ما هو بعيد عن القوة والعنف. وكانت في أذهاننا على مدى السنين صورة الأتراك و«الانكشارية»، والآن كيفما قلبت قنوات التلفزيون، محكوم بأن تشاهد أسراباً من الفاتنات الأرستوقراطيات من مختلف الأعمار. يرافق ذلك دعاية فعالة وغير مباشرة للصناعات والمنتوجات التركية.

صنعت هوليوود جزءاً كبيراً من صورة أميركا، ولعبت دوراً كبيراً في الترويج للنموذج الأميركي وتهديم النموذج السوفياتي. ومن أهم ما فعلت أنها تركت سيدني بواتييه يرفع الستارة عن النجوم السود.